



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية اللغة والآداب
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث
المستوى: سنة ثالثة ليسانس
تخصص: دراسات أدبية
الأفواج: (ف1+ف2+ف3)

المحاضرة الثانية:

القضية الفلسطينية في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

لقد كانت هزيمة الجيوش العربية سنة 1948 م مفاجأة من الأمة لنفسها، وفرصة لمواجهة ذاتها مواجهة صريحة بإعادة النظر في كل ما يحيط بها، سواء أكان ذلك ثقافة أم سياسة أم علاقات اجتماعية كما أدرك الشاعر العربي الحديث ألا سبيل إلى ذلك بغير الثقافة، وبغير الاعتراف من منابعها المختلفة. ولعل هذه الدعوة إلى التغيير مردها ما طال فلسطين من آلام ومآسي فقد عانت ولا تزال من استعمار صهيوني عالمي بغض شرد أبنائها ونهب أراضيها ليقيم فيها مستوطنات شرذمة من اليهود.

ولذلك، فإنه ليس من المبالغة أن نقول: إنّ شعور الشعراء العرب المحدثين بمأساة فلسطين وإحساسهم بالأمها، وتقديرهم لمعاناتها يتسم بالعمق والقوة، وقد عانوا جميعا ويلات الاستعمار وتجاوزاته في كلّ الأقطار العربية على اختلاف مناحيها، ولنا في شعر نزار قباني مثال حي على ذلك حين يقول:

لن تجعلوا من شعبنا
شعب هنود حمر
فنحن باقون هنا
في هذه الأرض التي
تلبس في معصمها إسوارة من زهر
فهذه بلادنا،

فيها وجدنا منذ فجر العمر...¹

يرفع نزار في مستهل هذه القصيدة لهجة المواجهة والتحدي للعدو الصهيوني المحتل، كما يعلن بالمقابل رفضه لأن تتكرر مأساة ومعاناة الهنود الحمر في أرض فلسطين، ويضمن ويصر على البقاء في أرضه بحكم شرعية الوجود العريق فيها، وهي بلادهم منذ فجر العمر.

أما توفيق زياد فلا يقتصر على رغبة البقاء في أرضه، وإنما ينادي بالثورة من أجل المحافظة على بقائه ووجوده فوقها معززا مكرما وذلك حين يقول:

إن يحبسونا... إنهم
لن يحبسوا نار الكفاح

¹ نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، ج 3، د.ط، د.ت، ص 167

لن يحبسوا عزم الشباب الحر

يعصف كالرياح

لن يحبسوا أغنية

تعلو على هذي البطاح

شرقية، عربية الألمان،

حمرء الجناح.¹

لا ينفذ في رأي الشاعر إلا الثورة، لأن المحتل يجهل أن سجن الأرض والناس لا يمنع الدم من أن يظهر البطاح كلها، وأن هذه الثورة يشارك فيها الشرقي والعربي، لأن الأمة العربية حسد واحد وكل متكامل لا تمزقه الأحوال مهما عظمت.

ومن خضم نيران الثورة المشتعلة، تهز الذكرى الثالثة عشرة لتقسيم فلسطين الشاعر مفدي زكرياء فيلتفت إليها، ويعبر عن مشاعره تجاهها، مقدما هذه المشاعر على شكل حوارية بينه وبين العرب وفلسطين، فيقول:

أناديك في الصرصر العاتية	وبين قواصفها النارية
وأدعوك بين أزيز الوغى	وبين جماجمها الجاثية
وأذكر جرحك في حربنا	وفي ثورة المغرب القانية
ويا قدسا باعه آدم	كما باع جنته الغالية
واضحى ابنه بين اخوانه	يلقبه العرب بالجالية
فلسطين والعرب في سكرة	قد انحدروا بك للهاوية. ²

وهذه الحالة المزرية التي وصلت إليها فلسطين تأثر بها كل الشعراء المحدثين وانعكست في واقعهم الشعري الذي غلبت عليه نغمة الحزن والكآبة، حيث يقول أدونيس:

أبحث في مملكة الرقاد
عن وجهك المدفون، يا بلادي

¹ توفيق زياد، ديوان توفيق زياد، دار العودة، بيروت، 1970 م، ص 108-111

² مفدي زكرياء، من وحي الأطلس، مطبعة الأنباء، المغرب، 1976 م، ص 199-200

ونجد هذه الصور المتلاحقة المعبرة عن صميم الواقع الفلسطيني تتكرر في أشعار الشعراء العرب المحدثين، مع تفرد هذا الشاعر أو ذاك في بناء تجربته الشعرية المعبرة عن القضية الفلسطينية حسا ومعنى، من ذلك ما نجده عند شاعر القضية محمود درويش، حين يقول :

إنّا تعلمنا البكاء بلا دموع
وقراءة الأسوار والأسلاك والقمر الحزين

حرية

وحماية

ورضا يسوع

وكتابة الأسماء:

عائشة تودع زوجها

وتعيش عائشة

تعيش روائح الدم والندى والياسمين.¹

مفارقة عجيبة يوردها درويش في هذه المقطوعة، أين يؤكد أنهم إذا ما أفلتوا من ظلمة النفي والغربة واللجوء، فإنهم لا يتوانون لحظة في العودة إلى حضن الأرض الدافئ، حيث « يتقنون فن الأسر وخروجه والبكاء والوداع والحياة، بين أشلاء القتلى وروائح الدم ».

ويعبر الشاعر حسين راشد عن المأساة الاجتماعية للشعب الفلسطيني في الخيام، وتحت وطأة الأغلال تعذيب الجند والموت المحتم، وكذا وضعهم المأساوي جراء انتشار جيوش القمل وصديد الجروح... وغيرها، فيقول :

في الخيام السود، في الأغلال، في ظلال جهنم

سجنوا شعبي وأوصوه ألا يتكلم

هددوه بسياط الجند، بالموت المحتم

¹ محمود درويش، الديوان، بيروت، لبنان، 2005 م، ص 288-289

ومضوا عنه وقالوا عش سعيدا في جهنم
لن تصبر الخيمة السوداء في المهجر قصرا
وصديد الجرح والإعياء لن يصبح عطرا
وجيوش القمل لن تصبح للأيتام خمرا
إنها تحفر للاجئ قبرا في جهنم.¹

ولعل الشاعر المعاصر حين ينطلق في مواقفه من القضايا الاجتماعية والمعيشية فإنّ في اعتقاده أنّ له الحق في الحياة الحرة الكريمة، والتمسك بالديمقراطية التي يراها حقا من حقوق الأفراد والجماعات لكسب لقمة العيش والتعبير عن وجوده بالذات، ثم إنّ «... للكاتب شأننا آخر، فالقراءة مثلا لازمة للكتابة ومناقشة الأصدقاء لا غنى عنها، وتوطين النفس على الورقة والقلم دربة يدوية لا بد منها، هذه العوامل الثلاثة: القراءة والمناقشة وتوطين النفس أمامها عقبات كثار، والكاتب يخوض نضالا حقيقيا حين يمارس الكتابة الآن»

و بسحر شعري خاص، نفتح ديوان الشاعر الأردني عبد الرحيم عمر على قصيدة عيناك حلوتان لنجده يقدم فيها أمثلة كونية للمأساة الفلسطينية القومية يعرض فيها مجازيا قصة الطوفان الصهيوني الذي أغرق أبناء القدس الشريف وحاذ بهم عن كل ما هو طبيعي وجميل، يقول:

وأنت كل عالمي في هذه السفينة

فالأخرون واجمون، استسلموا للموت، للطوفان

وكل زوج للفرار صورتان

خانفتان، ترقبان هجمة الردى

وأنت يا رفيقتي تغالبين الخوف

تزرعين حولك الأمان:

عجل بنا أيها الريان

عجل بنا، ها قمة الجبل يا أيها الريان

¹ حسين راشد، الأعمال الشعرية، مكتبة كل شيء، حيفاء، فلسطين، 2004 م، ص 38

الخوف والمنون توأمان.

ولا يزال الكيان الصهيوني يخلق حالات وأفعالا مقبحة من القتل والتشريد والتجويد والتخريب، لم يسلم منها الطفل الفلسطيني الذي خرج من قماطه حيث أصبح عرضة لها على يد المحتل « الإسرائيلي الذي رام اقتلاع الناس من الأرض وتعقبهم إلى أمهادهم قبل أن يشبوا عن الطوق »، ولسعدى يوسف قصيدة "التفنيذ" التي يصف فيها حالة الظلم والاضطهاد التي يعانها الطفل الفلسطيني يقول:

يقف الطفل الفلسطيني في الحجرة

يصغى الأنبياء

لصريير الحكم

تصغى الطبقة

للإرادية

تصغى المشنقة

لأغاني الطفل

في الساحة كان القمر مبتلا

وفي الحجرة كان العنف المائل مبتلا

خاتمة:

وصفوة القول إن القضية الفلسطينية لم تكن حكرا على شعرائها وإنما لكل الشعراء العرب المحدثين مرايا في الحديث عنها، وبعث الهمم والنخوة العربية على الاستيقاظ، لأنها مسؤليتهم جميعا، ذلك أنّ أبناء هذا النصف الثاني من القرن العشرين، اکتوا بنار الاستدمار اللاهبة في المحرقة الفلسطينية وانتقلوا كلهم من البؤرة الساخنة إلى الحافة المحاذاة مباشرة، ثم إن العلاقة بين الوعي القومي بأشكاله الايديولوجية والجرح الفلسطيني هي علاقة سببية، تستدعي تضافر الجهود كلها من أجل الحصول على نور الاستقلال والحرية.